المحاضرة الثانية والثلاثون: العوامل أو المتغيرات التي تتحكم في عملية الاتصال الثقافي

أولا: درجة التباين الثقافي

أن درجة التباين بين الثقافات المتفاعلة، وما يتعلق بالتكنولوجيا أو الأفكار، القيم، البناء الاجتماعي، تؤثر تأثيراً هاماً في عملية التثاقف، فضلاً عن أن طبيعة العناصر الثقافية، تتحكم في السرعة التي تنتشر فيها خارج نطاق المجتمعات التي اخترعتها، إذ أن الأدوات، السلع، أساليب الإنتاج، النقل، الاتصال الإعلامي، لا تصطدم بمقاومة كبيرة، حينما تدفعها عملية الانتشار من المجتمع المخترع إلى المجتمعات (الاجنبية) الأخرى التي انتقلت إليها. وعلى العكس فإن العناصر المعنوية مثل القيم الاخلاقية والذوقية والعقيدة الدينية والطقوس غالباً ما تصطدم بمقاومة كبيرة حينما تنشرها تيارات الاتصال إلى المجتمعات الأخرى وتزداد المقاومة حينما تتضمن عملية التثاقف تبادل العقائد الدينية، إذ أن الأخيرة تمثل أقوى وأشد المواقف وأكثرها استقراراً في نظام الشخصية.

ثانياً: الوسيط في الاتصال

أن عملية الاتصال الثقافي تتأثر بدرجة بمكانة الأشخاص الاجتماعية (جاه سلطة، ثروة) الذين ينشرون العنصر الثقافي الجديد إلى جماعاتهم الاجتماعية، إذ أن هناك علاقة عكسية بين مكانة الشخص الاجتماعية الناقل للعنصر الثقافي وبين درجة قبول العنصر أو رفضه من قبل الجماعة الاجتماعية، فإذا كان الشخص يتمتع بمكانة اجتماعية عالية داخل جماعته

الاجتماعية (الشخص الناقل للعنصر الثقافي) كما ساعد على سرعة انتشاره وقبوله والعكس صحيح. فقد يتقبل الناس العنصر الثقافي بدافع من التقليد أو محاكاة من هم أعلى مكانة اجتماعية كنوع من الميل أو الرغبة في تحسين مكانتهم الاجتماعية.

ثالثاً: ظروف الاتصال وقوته

أن الاتصال وانتشار الثقافات يتأثر بنمط الاتصال الثقافي، بمعنى النمط المستخدم في عملية نقل العناصر الثقافية من جماعة إلى أخرى، فإذا كان النمط في الاتصال الثقافي (حربي) بمعنى من خلال غزو الجماعات لجماعات أخرى، إذ يكون التفاعل والاتصال مباشراً بين الجماعتين مما ينتج في ظهور ثقافات جديدة ناتجة عن تداخل أو تقاطع بين أعراف الغزاة وأعراف الجماعات الأصلية، إذ أن انتقال العناصر الثقافية للغزاة لا يجري بصورة عشوائية. فالغزاة أكثر ما يستهدفون التأثير في الدين واللغة والألبسة أو الأزياء، لذا يهتمون بنقل اللغة والدين والألبسة إلى المغزو.

ويمكن القول أن استخدام القوة والقهر لا ينفع أحياناً في نقل ثقافة الغزاة إلى المغزو، فاليابان نموذج في ذلك فحينما تعرضت للغزو الأمريكي اقتبست منهم العلم والتكنولوجيا فحسب لكنها قاومت وبعنف القواعد الاخلاقية الغربية.

رابعاً: فترة الاتصال

أن للزمن فاعليته وتأثيره في عملية الانتشار والتثاقف، فالعلاقة واضحة، فكلما طالت الفترة الزمنية في عملية الاتصال بين الجماعات كلما كانت التأثيرات الثقافية أعمق وأشد والعكس صحيح. الغزو العثماني نموذج في ذلك أو الفرنسي لدول المغرب العربي.

خامساً: درجة بساطة العنصر الثقافي

مما لا شك فيه أن سرعة الاقتباس الثقافي ترتبط وبدرجة كبيرة ببساطة العنصر الثقافي المستعار. فالعناصر البسيطة غالباً ما تقتبس بسرعة أكبر بالمقارنة مع العناصر المعقدة فالعناصر المعقدة تتطلب جهداً ذهنياً أكبر من جانب المقتبس للتغلغل في خصائصها واتقان كيفية استخدامها من العناصر السهلة.

نموذج في ذلك النظريات العلمية الجديدة تنتشر بسرعة أقل من انتشار الأمور الفنية الحية بالنظر إلى التعقيدات الذهنية التي تميز الأولى عن الثانية. فضلاً عن أن انتشار القضايا الميكانيكية أسرع من انتشار الأفكار الفلسفية بالنظر إلى صعوبة الأخيرة وبساطة الأولى.

سادساً: المنافع.

ما يبدو بصورة واضحة أن الإنسان يفضل اقتباس الأشياء التي تحقق مصالحه. لذا أن منفعة الشيء أو العنصر المقتبس ترتبط بسرعة انتشاره. فإذا كانت العناصر الثقافية المقتبسة تحقق أو تشبع مصالح الناس فإنها سرعان ما تنتشر والعكس صحيح. لكن إذا ذلك ارتبط أيضاً بنمط المجتمع من حيث كونه متجانس أو غير متجانس، ففي المجتمع البدائي أو التقليدي تتجانس المنافع لذا فإن استجابة الجماعة للعنصر الثقافي الجديد من حيث الرفض أو القبول تكون على مستوى عال من التجانس أو التشابه. لكن اختلاف المنافع في المجتمع المعقد بسبب التنوع الطبقي والثقافي غالباً ما يسبب اختلاف في استجابات الأفراد للتأثيرات الثقافية الخارجية إذ يأخذ بعضها شكل القبول والبعض الآخر الرفض.

سابعاً: التشابه الثقافي

في حالة وقوع الاتصال الثقافي بين جماعتين تتشابهان في عناصرهما الثقافية فإن ذلك يؤثر وبدرجة في عملية الاستجابة للعناصر الثقافية بين الجماعتين المتفاعلتين، العكس صحيح، إذ أن تناقض العناصر الثقافية بين الجماعتين يزيد من الرفض والمقاومة وبالتالي عدم الاستجابة للعناصر الثقافية.

ثامناً: التكامل الثقافي

على الرغم من صعوبة قياس التكامل الثقافي في الانظمة الإنسانية، إلا أن الانثربولوجيون عدوا المجتمعات البدائية تمثل درجة من التكامل الثقافي، آخذين بنظر الاعتبار درجة استقرارها. ومع ذلك ليس هناك مجتمع يتمكن من تحقيق التكامل الثقافي نظراً لعدم خلو نظامه الثقافي من نواقص (هنهات) فالمجتمع الذي يتعرض للأزمات الاقتصادية بسبب خلل في نظامه الاقتصادي، لا يتمكن من الاعتماد على ثقافته في مجابهة المشكلة، لذا يكون مستعداً للاستجابة للمخترعات الأجنبية أو النماذج النظرية التي تتمكن أو لها القدرة في مواجهة عوائقه. لذا هناك علاقة بين حجم الاستجابة للاقتباس الثقافي وبين شدة الحاجة إلى ذاك الاقتباس.

يترتب عن المتغيرات الثمانية التي أشرنا إليها (مجموعة من العمليات) نوجزها بما يأتي.

١- الاستبدال: قد يجري تبني سمة أو مركب سمات جديدة تأخذ مكان السمات التقليدية أو القديمة التي كانت موجودة لتؤدي الوظائف ذاتها نموذج في ذلك استبدال الطب الشعبي بالطب الاكاديمي.

٢- الإضافة: قد لا تستبدل السمات القديمة سمات جديدة، بل يضاف إليها نموذج ذلك في الهند اللغة الهندية لم تستبدل بل أضيف لها اللغة الإنكليزية أو في إيران تشتهر بصناعة السجاد (يدوياً) فهذه الصناعة اليدوية لم تستبدل لكن أضيف لها الصناعة الميكانيكية.

٣- التوفيقية (المزاوجة): قد تندمج سمات جديدة مع سمات قديمة لتشكل نسقاً أو نسقاً فرعياً جديداً

نموذج في ذلك الأزياء لاسيما أزياء الرجال في المجتمع الأردني فهناك مزاوجة في الزي بين القديم والجديد، إذ يرتدي الرجل البنطلون والجاكيت بمرافقة العقال في رأسه. أو الفنون المعمارية بوصفها مزج بين التقليد والمعاصرة.

٤- التفكك الثقافي: قد تترتب عن الاتصال إلى فقدان جانب أو جزء من الثقافة من دون ظهور جانب آخر يعوض عنه. نموذج في ذلك أندثار التكنولوجيا اليدوية القديمة لاسيما في البلدان الصناعية المتقدمة.

٥- التجديد: إذ يجري التواصل إلى البناءات الجديدة التي ليس لها أي جذور في أي ثقافة لمواجهة الاحتياجات المتغيرة، الكومبيوتر، الموبايل، الفضائيات.

٦- الرفض: قد تكون التغيرات المراد حدوثها هائلة وسريعة، إذ لا يتمكن الأفراد (عدد كبير منهم) تقبلها وفي مثل هذه الحالة تبذل جهود لمقاومة التغير نموذج في ذلك الانتفاضات، الحركات الدينية.

أن هذه العمليات تحدث كاستجابة للاختراعات والتغييرات والتجديدات التي تنشأ في الداخل فضلاً عن تلك التي تنجم عن الاحتكاك بثقافة مختلفة.